(**قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُواْ تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (٨٦) يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧)**) .

[يوسف : ٨٣- ٨٧] .

(**قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا**) أي : قال لهم: بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً ، أي : ليس الأمر كما تدعون، ولكن أنفسكم هي التي زينت لكم أمرا أنتم أردتموه .

(**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ**) لا تجزع فيه ولا تسخط ولا شكوى لمخلوق .

(**عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا**) أي : عسى الله تعالى أن يجمعني بأولادي جميعاً- يوسف وبنيامين وروبيل الذي تخلف عنهم في مصر- إنه سبحانه هو العليم بحالي، الحكيم في كل ما يفعله ويقضى به.

وهذا القول من يعقوب عليه السلام يدل دلالة واضحة على كمال إيمانه، وحسن صلته بالله تعالى وقوة رجائه في كرمه وعطفه ولطفه سبحانه.

- وقد جاء في الحديث (لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى) .

فمن أحسن ظنه بالله آتاه الله إياه.

لقوله ﷺ (يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي) متفق عليه.

وفي المسند قال ﷺ (إن الله عز وجل قال: أنا عند ظن عبدي بي، إنْ ظن بي خيراً فله ، وإن ظن شراً فله) .

والمعنى : أعاملُه على حسب ظنه بي ، وأفعل به ما يتوقعه مني من خير أو شر .

وقال عبد الله بن مسعود (والذي لا إله غيرُه ، ما أُعطي عبدٌ مؤمن شيئاً خيراً من حسن الظن بالله عز وجل ، والذي لا إله غيره ، لا يحسن عبد بالله عز وجل الظن إلا أعطاه الله عز وجل ظنَّه ، ذلك بأنَّ الخيرَ في يده) رواه ابن أبي الدنيا في حسن الظن.

قال سهل القطعي رحمه الله (رأيت مالك بن دينار رحمه الله في منامي، فقلت : يا أبا يحيى ليت شعري ، ماذا قدمت به على الله عز وجل؟ قال: قدمت بذنوب كثيرة، فمحاها عني حسن الظن بالله) رواه ابن أبي الدنيا .

وعن أبي بكر رضي الله عنه قال (قلت للنّبيّ ﷺ وأنا في الغار: لو أنّ أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا. فقال: «ما ظنّك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما) متفق عليه .

- ومعنى حُسن الظن بالله عَز وجل : هو اعتماد الإنسان المؤمن على ربّه في أموره كلها ، و يقينه الكامل ، وثقته التامة بوعد الله ووعيده ، و إطمئنانه بما عند الله ، و عدم الاتكال المطلق على تدبير نفسه وما يقوم به من أعمال .
- وحسن الظن بالله من مقتضيات التوحيد ، لأنه مبنيٌ على العلم برحمة الله وعزته ، وإحسانه وقدرته ، وحسن التوكل عليه ، فإذا تم العلم بذلك أثمر حسن الظن .

- **قال ابن القيّم** : كلما كان العبد حَسن الظَّن بالله، حَسن الرَّجاء له، صادق التوكُّل عليه: فإنَّ الله لا يخيِّب أمله فيه البتَّة؛ فإنَّه سبحانه لا يخيِّب أمل آملٍ، ولا يضيّع عمل عاملٍ، وعبَّر عن الثقة وحُسْن الظَّن بالسَّعة؛ فإنَّه لا أشرح للصَّدر، ولا أوسع له بعد الإيمان من ثقته بالله، ورجائه له، وحُسْن ظنِّه به .

وقال أيضًا: فعلى قدر حُسْن ظنِّك بربِّك ورجائك له، يكون توكُّلك عليه؛ ولذلك فَسَّر بعضهم التَّوَكُّل بحُسْن الظَّن بالله، والتَّحقيق :أنَّ حُسْن الظَّن به يدعوه إلى التوكُّل عليه، إذ لا يُتَصَوَّر التَّوَكُّل على من ساء ظنك به، ولا التَّوَكُّل على من لا ترجوه .

(**إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ**) بحالي .

(**الْحَكِيمُ**) في أفعاله وأوامره وأحكامه .

(**وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ**) أي: أعرض عن بنيه وقال متذكراً حُزنَ يوسف القديم الأول (يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ) جَدَّد له حزنُ الابنين الحزن الدفين .

● **قال الخازن** : إنما جدد حزنه على يوسف عند وجود هذه الواقعة لأن الحزن القديم إذا صادفه حزن آخر كان ذلك أوجع للقلب وأعظم لهيجان الحزن الأول .

● **وقال الرازي** : واعلم أنه لما ضاق صدره بسبب الكلام الذي سمعه من أبنائه في حق بنيامين عظم أسفه على يوسف عليه السلام : (وَقَالَ يأَبَتِ دَخَلُواْ على يُوسُفَ) وإنما عظم حزنه على مفارقة يوسف عند هذه الواقعة لوجوه :

الوجه الأول : أن الحزن الجديد يقوي الحزن القديم الكامن .

والوجه الثاني : أن بنيامين ويوسف كانا من أم واحدة وكانت المشابهة بينهما في الصورة والصفة أكمل ، فكان يعقوب عليه السلام يتسلى برؤيته عن رؤية يوسف عليه السلام ، فلما وقع ما وقع زال ما يوجب السلوة فعظم الألم والوجد.

الوجه الثالث : أن المصيبة في يوسف كانت أصل مصائبه التي عليها ترتب سائر المصائب والرزايا ، وكان الأسف عليه أسفاً على الكل.

الرابع : أن هذه المصائب الجديدة كانت أسبابها جارية مجرى الأمور التي يمكن معرفتها والبحث عنها.

(**وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ**) أي : وَابْيَضَّتْ عينا يعقوب من شدة الحزن على يوسف وأخيه حتى ضعف بصره، حيث انقلب سواد عينيه بياضا من كثرة البكاء.

● **قال الماوردي** : قوله تعالى (وابيضت عَيْنَاه من الحزن) فيه قولان :

أحدهما : أنه ضعف بصره لبياض حصل فيه من كثرة بكائه.

الثاني : أنه ذهب بصره ، قاله مجاهد.

(**فَهُوَ كَظِيمٌ**) أي : ممتلئ حزنا على فراق يوسف له، إلا أنه كاتم لهذا الحزن لا يبوح به لغيره من الناس.

قالوا: وإنما تأسف على يوسف دون أخويه- بنيامين وروبيل- مع أن الرزء الأحدث أشد على النفس ... لأن الرزء في يوسف كان قاعدة مصيباته التي ترتبت عليها الرزايا والخطوب ولأن حبه ليوسف كان حباً خاصاً لا يؤثر فيه مرور الأعوام ... ولأن من شأن المصيبة الجديدة أن تذكر بالمصيبة السابقة عليها، وتهيج أحزانها .

(**قَالُواْ تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ**) أي : لا تفتأ ولا تزال تذكر يوسف وتتفجع عليه .

(**حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا**) أي: ضعيف الجسم، ضعيف القوة .

● **قال ابن عطية** : و " الحرض " : الذي قد نهكه الهرم أو الحب أو الحزن إلى حال فساد الأعضاء والبدن والحس ، وعلى هذا المعنى قراءة الجمهور " حَرَضاً " بفتح الراء والحاء .

(**أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ**) يقولون: وإن استمر بك هذا الحال خشينا عليك الهلاك والتلف.

● **قال القرطبي** : غرضهم منع يعقوب من البكاء والحزن شفقةً عليه ، وإن كانوا السبب في ذلك.

(**قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي**) أي : غمي وهمي وأحزاني .

قال بعض العلماء : والإنسان إذا قدر على كتم ما نزل به من المصائب كان حزناً ، وإذا لم يقدر على كتمه كان بثاً .

(**إِلَى اللَّهِ**) وحده .

(**وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**) أي: أرجو منه كل خير.

(**يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ**) يقول تعالى مخبرا عن يعقوب عليه السلام إنه ندب بنيه على الذهاب في الأرض، يستعلمون أخبار يوسف وأخيه بنيامين.

والتحسس: هو طلب الشيء بطريق الحواس بدقة وحكمة وصبر على البحث.

والتحسس يكون في الخير، والتجسس يستعمل في الشر.

● **قال ابن عطية** : والتحسس : طلب الشيء بالحواس من البصر والسمع ، ويستعمل في الخير والشر ، فمن استعماله في الخير هذه الآية ، وفي الشر نهي النبي ﷺ في قوله : ولا تحسسوا ، وقوله (من يوسف وأخيه) وخص يوسف وبنيامين بالذكر لأن روبيل إنما بقي مختاراً.

(**وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللَّهِ**) أي : لا تقنطوا من رحمة الله وفرجه وتنفيسه .

(**إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**) أي : فإنه لا يقنط من رحمته تعالى إلا الجاحدون المنكرون لقدرته جل وعلا .

وحقيقة القنوط من رحمة الله : هو استبعاد الفوز بها في حق العاصي .

قال تعالى (قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّون) .

تحريم القنوط من رحمة الله ، لأنه سوء ظنٍ بالله ، **وذلك من وجهين** :

الوجه الأول : أنه طعن في قدرته سبحانه .

الوجه الثاني : أنه طعن في رحمته سبحانه .

عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر، فقال: (الشرك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله). (رواه البزار والطبراني بسند حسن) .

فائدة :

كذلك يحرم الأمن من مكر الله :

وهو الغفلة عن عقوبته مع الإقامة على موجبها وهو المحرمات .

فهو من الكبائر .

قال تعالى (أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ)

وجه الدلالة من وجهين :

أحدهما : في قوله (أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللهِ) لأنه استفهام استنكاري يتضمن ذمهم على ما اقترفوه ، والذم للفعل دليل على تحريمه ومنافاته لما ينبغي من إجلال الله وإعظامه .

والآخر : في قوله (إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُون) لأنه جعله سبباً لخسرانِهم ، وما أنتج خُسراً فهو محرّم مباين لتعظيم الله ، فكل محرّم يوجب خُسْراً ، وكل طاعةٍ تورث ربحاً .

الفوائد :

١- جواز اتهام البريء لملابسات أو تهمة سابقة .

٢-الصبر الجميل هو الذي لا تسخط ولا جزع ولا شكوى فيه .

٣-وجوب الصبر عند المصيبة .

٤-فضل حسن الظن بالله .

٥-أن المؤمن عندما تحيط به الخطوب يفزع إلى الله .

٦-ثقة المؤمن بربه .

٧-جواز إظهار التأسف والحزن والشكوى لله .

٨-بيان أن المصائب تذكر ببعضها .

٩-جواز البكاء عند المصيبة .

١٠-فضيلة كظم الغيظ .

١١-شكوى المؤمن همه وغمه إلى الله من أسباب الفرج .

١٢- قرب الفرج يقوي الرجاء .

١٣-اشتدي أزمة تنفرجي .

١٤-أن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً .

١٥-سنة الله في الابتلاء .

١٦-تحريم اليأس من رحمة الله .

١٧-اليأس من رحمة الله من صفة الكافرين .

١٨-القنوط من الكبائر .